

ما يحتاجه الإنسان لبناء الحضارة

إعداد : خمخام فريحة

مقدمة

مالك بن نبي المفكر الجزائري، صاحب أكبر مشروع حضاري حُجِبَ عن العيون والعقول وطُمس عن جهالة أو عن سابق إصرار، **كيف**؟ بتغييبه على جميع الأصعدة والمستويات لتبقى أفكاره حبيسة الأسطر رغم أنها أفكار علمية عملية تتطلب الممارسة والتطبيق وعملا ميدانيا ليعطي ثماره و تفعيلا كما كان يدعوا إليه دائما بن نبي .

المشروع الحضاري عند المفكر مالك بن نبي يهدف إلى بناء حضارة إنسانية جامعة لكل البشر "فليس مُهما عند بناء الإنسان الجديد أن يُبدل نمط أو زيّ لباسه و نوعية أثاث منزله .. ولكن المهم هو أن يُحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة و الأخلاق و الاقتصاد وكافة المجالات وبكلمة واحدة يقول مالك بن نبي يجب أن نَقْلَعَ ونُصْفي القابلية للاستعمار من عالمه حتى نتطلق طاقته " (1).

و لهذا جعل من الإنسان المحور الرئيسي في مشروعه التغييري ، فهو يرى أن أي مجتمع يبني نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته ، فلإنسان يتجذّر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى و الإنسان حينما يُنظّم شبكة علاقاته الاجتماعية فإنه يتحرك في مسيرته عبر الأشخاص و الأشياء المحيطة به فيتخذ العالم الثقافي إطاره .

ولان الحضارة لدى مالك بن نبي تتطلب من الحظ والعمر ما يكفي من القرون لأداء وظيفتها و رسالتها في العالم، و المهم عنده في كل هذا هو "رصيد الحضارة" ، الذي يقوم على ثلاثة عناصر أو أركان وهي :

1-الإنسان 2 - إمكانيات الإنسان 3- الزمن .

إذا فالحضارة = إنسان + تراب + زمن

فالعناصر الثلاثة التي هي الإنسان والتراب و الزمن لا تمارس مفعولها في حالة شتتية ، ولكن ضمن تركيب متآلف يحقق بواسطتها جميعا إرادة وقدرة المجتمع المتحضر (2) عندما يتحرك رجل الفطرة و يأخذ طريقه لكي يصبح رجل حضارة فانه لا زاد له سوى التراب و الوقت اللازم للوصول و إرادته لتلك الحركة .

يبقى عنصر هام ينبهنا إليه مالك بن نبي في هذه المعادلة، وهو عنصر ثنائي أي تعادلي أيضا ويتمثل في توجيه المبدأ الأخلاقي وتوجيه الذوق الجمالي سنأتي على ذكره لاحقا. ويرى مالك بن نبي أن مشكلة الحضارة لا تحل باستيراد منتجات حضارية موجودة، ولكنها تتطلب حل ثلاث مشكلات جزئية على النحو التالي:

1-مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ.

2-مشكلة التراب، وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية.

3-مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد

مشكلة الإنسان:

انطلاقاً من المفهوم الإسلامي التزم مالك بن نبي قاعدة مفادها أن الإنسان هو المحور الرئيس في أي مشروع حضاري أو إصلاح، والإنسان هو المقصد وهنائه هو الغاية. فالصعود الحضاري العربي الإسلامي كان بإنسان مؤهل قام بهذه المهمة النهضوية، ويوم دبّ الضعف في جسد المجتمع وفي الفرد حصلت ثغرات في شخصية الإنسان الفرد فأدى ذلك إلى حالة من الجمود والانحطاط. إن هذه الصورة التي حددها ابن نبي تُنبه إلى أهمية الالتفات للإنسان للارتقاء به فهو الركيزة للارتقاء الحضاري.

وهذا الإنسان هو الذي تمّ تهذيب طباعه وشخصيته والارتقاء الفكري به، وبذلك تكون العلوم الإنسانية ومنها علوم الاجتماع والنفس والتربية وكل علم يسهم في تنشئة الأجيال أجدد بالاهتمام من تلك التي تدور حول الجوانب المادية.

(السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء اعم من المعرفة و أوثق صلة بالشخصية فهي مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه و الثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه و شخصيته) (3)

فالإنسان مستخلف في الأرض، وهو مخلوق في أحسن تقويم، وقد أعطاه الخالق سبحانه من التكريم والنعم ما لم يعطه لأي كائن آخر. وهذا الإنسان يحتاج منّا الإعداد والتربية والتنشئة السليمة كي تستقيم مسيرة حياته، ومن أجل أن تكون عنده الأهلية لأداء دوره. ولذلك فإن تربية الإنسان وتأهيله . وهي مهمة شاقة . يجب أن يسبقا عملية تكديس الثروات، وتجميع المقتنيات لأنها عملية أسهل بكثير والأولى توجيه العناية للإنسان لتنمية مواهبه وقدراته وتغذية فكره وتعويده أن يقرن القول بالفعل عندها يسير قطار الإصلاح والنهضة على السكة الصحيحة.

واستشهد مالك بن نبي بالآية الكريمة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد/ 11 في تأكيد مبدأ تغيير النفس بالجمع وليس بالمفرد من اجل نهوض جماعي ، فالفرد واجبه أن يغيّر ما بنفسه وفي ذاته، وكذلك المجتمع بمجموع أفراده مسؤول عن تغيير ما في داخل النفس. هنا يكون المسار الصحيح لأن التغيير لا يكون من خلال الأرقام أو الأشكال أو المباني والآلات فكل ذلك لا فائدة منه ما لم يبدأ المسار الثوري والحضاري بتغيير الرأسمال الأهم ألا وهو الإنسان .

إمكانيات الإنسان:

للإنسان إمكانيات إذا ما استخدمها جيدا استطاع أن يبني مجتمعا متحضرا وهي (إمكانيات ذهنية ، إمكانيات جسمية، و المجال الحيوي الذي يعيش فيه) و سماها أيضا مالك بن نبي

بالمؤثرات ، حيث قال في كتابه شروط النهضة " يؤثر الإنسان في المجتمع بثلاث مؤثرات :أولاً بفكره ، ثانياً بعمله ، ثالثاً بماله

وقضية الفرد منوطة بتوجيهه في ثلاث نواح" : (4)

- أولاً توجيه الثقافة

- ثانياً العمل

- ثالثاً رأس المال

الثقافة

الإنسان هو الأساس في مركب الحضارة لأنه يحرك التراب ويستغل الزمن، والإنسان حصنه هويته الثقافية، وهي التي تحميه من السقوط بفعل الغزو والعدوان أو بفعل الجمود والكسل. قال ابن نبي في هذا" :إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره البعض إلى الرقي والتقدم، فإنها أيضاً ذلك الحاجز الذي يحفظ البعض الآخر من السقوط من أعلى الجسر إلى الهاوية (5)

الثقافة تساهم في بناء الانسان تنشئةً وهويةً وتجعله منتمياً لمحيطه ومجتمع أمته، بينما المعارف في حال من التطور والنماء لا تقف عند حدود، والثقافة تُعدّه بينما التعليم يعطيه ما يحتاجه من معارف وآليات واختصاص، فالثقافة تهذب سلوكه وتؤهله اجتماعياً بينما الحضارة تعدّه للانخراط في أداء دوره وتوفير له احتياجاته.

ويكمل مفكرنا قائلاً: «الثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. وهكذا نرى أن هذا التعريف يضمّ بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي مقومات الإنسان، ومقومات المجتمع، مع أخذ في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعاً في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات .

كل مجتمع أمة له ثقافته ومنها تتشكل شخصية المجتمع كما شخصية الفرد، لأن الانسجام في النسيج الاجتماعي لا يتم بغير ذلك، فالفرد ابن مجتمعه ومحيطه الثقافي الذي نشأ فيه وترى على القيم الناظمة له، وقد تحل الفتن، وتسود الفوضى إذا تنافر الفرد مع محيطه حيث يتناقض عندها الأفراد المكونون للمجتمع فتفسد العلاقات بينهم، وينعكس ذلك على المسار الحضاري فيه قيماً ثقافية مناسبة لهذا الواقع، فلا استقرار بغير انسجام.

الأفكار

الإنسان هو الأساس وإعداده يحتاج سنوات وخطوات لأن التطور الفكري لا يكون بقرار أو مجموعة مقتنيات يتم تجميعها، وإنما المسار الفكري للفرد والحضاري للأمم ينمو ويتطور بشكل تراكمي كمي ونوعي كحال النمو والتطور في كل مخلوق حيّ ، وهذا الخلط لا يرتفع حسب رؤية ابن نبي إلا بعد ربط الثقافة بالحضارة ربطاً وثيقاً، وعلى أساس هذا الربط تصبح الثقافة كما يقول، نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن قياس الفرق الضروري بين الثقافة والعلم .

يقول مالك بن نبي عن أهمية الأفكار في تغيير مصير الشعوب " في الماضي كانت البطولات تتمثل في جراءة فرد لا في ثورة شعب ، وفي قوة رجل لا في تكاتف مجتمع فلم تكن حوادثها تاريخاً بل كانت قصصاً ممتعة و لم تكن صيحاتها صيحات شعب بأكمله و إنما كانت مناجاة ضمير لصاحبه لا يصل صدها إلى الضمائر الأخرى فيوقظها من نومها العميق " (6)

كما انه يحدد نمط التفكير بعنصران اثنان الأرض و السماء فإما أن ينظر المرء حول قدمه أي نحو الأرض ليصبح تفكيره تقنيا و إما أن يرفع بصره نحو السماء فيصبح تفكيره ذو جذور أخلاقية غيبية (7)

العمل :

إن التغيير الذي يدعو إليه مالك بن نبي الذي يبدأ من الذات إنما يراد به أن يرفض الفرد الدونية في النظرة للآخرين، وأن يستعيد ثقته بنفسه، وبقدراته التي تؤهله للإنجاز ، ولبناء حضارة مرموقة، فتحريز الذات من قابلية الذل ومن التخاذل هو في تحريرها من القابلية للاستعمار وبذلك تبدأ المجتمعات مسارها الحضاري بالاتجاه السليم من خلال العمل الذي يجب أن يتوفر على فئة **الأشياء** ويقصد بالأشياء الوسائل المادية (8) - فئة الأشخاص - فئة الأفكار) و يشترط مالك بن نبي لانجاز هذه المسيرة أن يأخذ الإنسان طابعه تبعا للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة : الأفكار . ، الأشخاص ، الأشياء.

- لكن هذه الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص.. وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تتسجم في صورة حضارة،

يفقد الإنسان فاعليته في بناء الحضارة عندما يسيء استخدام هذه العناصر عندما يفقد عالم الأفكار كل قدرة خلاقية ، عالم الأشخاص نتيجة اللامبالاة أو النفور ،عالم الأشياء نتيجة الضعف و عدم الإقبال . (9)

يتجلى العمل في رأي مالك بن نبي في عمل الحرفي المنكب على عمله و الحارث المنحني على محراثه و الجندي المسلح ببندقيته و العمل لا يتم فعليا إلا في ظروف تتوافق بالضرورة مع سؤال " كيف " و " لماذا " (10) ف "كيف" في رأيه من أجل انتقاء الاستحالة أما " لماذا " حتى لا يكون العمل بغير سبب أي عملا عابثا.

رأس المال:

يفرق مالك بن نبي بين مصطلحي الثروة ورأس المال ، فالأول يستخدمه الفرد في ميدانه الخاص مثل عقاره أو قطيعه أو ورشته "الثروة لا تسعى لغايتها كقوة مالية مستقلة ، بينما رأس المال

ينفصل عن صاحبه ويتسع مجاله ليخلق حركة ونشاطاً ، ويوظف الأيدي أينما حل وحيثما ارتحل فهو المال المتحرك .

مشكلة الزمن :

و هو الزمن الذي تعيشه الحضارة لأداء رسالتها سواء بالسلب أو الإيجاب. فالحضارة في أمة تحتاج لبناء الإنسان بناء ثقافياً ومعرفياً مناسباً، لا بد من استثمار الإمكانيات والثروات (التراب) بشكل أفضل، هذا مع توظيف الوقت بعيداً من الهدر والبطالة.

مشكلة التراب :

التراب كل شيء على الأرض وفي باطنها. وهو أحد العناصر الثلاثة التي تكوّن الحضارة فإذا ما توفر المركب الديني لتكوين هذه العناصر فإننا نرى التراب في بلاد الإسلام جديراً ببحثه كعامل من عوامل الحضارة وحينما نتكلم عن التراب لا نبحث في خصائصه وطبيعته ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب عالي القيمة وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط .

ما يحتاجه الإنسان

- الإنسان حينما ينظم شبكة علاقاته الاجتماعية بوحى الفكرة في انبثاقها فإنه في مسيرته عبر الأشخاص و الأشياء المحيطة به يتخذ العالم الثقافي إطاره في انجاز هذه المسيرة و يأخذ طابعه تبعاً للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة الأشياء ، الأشخاص ، الأفكار فعدم التوازن بين العناصر الثلاثة يفضي إلى انهيار المجتمع .
- لا يستطيع الإنسان المنعزل أن يعيش طويلاً في وحدته دون أن يصنع لنفسه و في فترة محدودة من الزمن بضرورة التجربة الأزلية التي بها يتكيف المجتمع مع بيئته (11)

1-الدين

إن خاصية الإيمان هذه ترتقي به إلى عالم الروح وتضفي عليه نوعاً من "الغائية" التي ترتفع به عن النتائج الدنيوية وتخلصه من سيطرة الغرائز وتربطه بعالم القيم والأخلاق ، فتحرك بداخله طاقة خفية تخرجه من عالم "التكديس " ، فكل هذه الحضارات المعاصرة لنا قد شكلت تركيبها المتألف الاصيلي للانسان و التراب و الزمن في مهد فكرة دينية (12)

2-التربية

إن العناية بالتربية أمر ضروري من أجل تنشئة الجيل وإعداده انطلاقاً من أساس مكين لواقعنا هو العروبة والإسلام. والموقف السليم فكرياً هو بعدم الانبهار بالوافد الأجنبي، وكذلك الابتعاد عن كل أشكال الجمود باسم الدين والتراث

3-الاخلاق

يرى ابن نبي أن العلاقات الشخصية بين الأفراد لا تقوم في أي مجتمع من دون أساس أخلاقي، وشبكة الصلات الثقافية هي تعبير عن العلاقات الشخصية في مستوى معين، لذلك لا يمكن لهذه الشبكة أن تتكون بدون مبدأ أخلاقي. كما أن فعالية المجتمعات تزيد وتنقص بقدر ما يزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص. ومنه يمكن القول أن المبدأ الأخلاقي هو الذي يقرر الاتجاه العام للمجتمع ، بتحديد الدوافع والغايات.

4-الذوق الجمالي

الذوق الجمالي هو توأم الإبداع، وهما رفيقان في كيان إنسان الحضارة. ولقد تنبه مالك بن نبي للدور الحضاري الذي تلعبه النزعة الجمالية في كيان إنسان الحضارة حيث قال: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل أو بالأفكار الكبيرة، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقيح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لابد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه". ولهذا لا يمكن لإنسان الحضارة إلا أن يكون ذوّاقاً تطبع في خياله صور الجمال قبل أن يطبع حضارته بها، كما أن صور الجمال في حضارته تطبع خياله ليزيد الجمال جمالاً فيرتقي بذائقته وبالتالي بحضارته، إنها علاقة مركبة وضرورية تلك التي توجد بين الجمال وإنسان الحضارة.

يقول مالك بن نبي يمكننا ان نصوغ هذه العلاقة في صورة جبرية هكذا (13)

مبدأ اخلاقي + ذوق جمال = اتجاه حضارة .

5- الإبداع

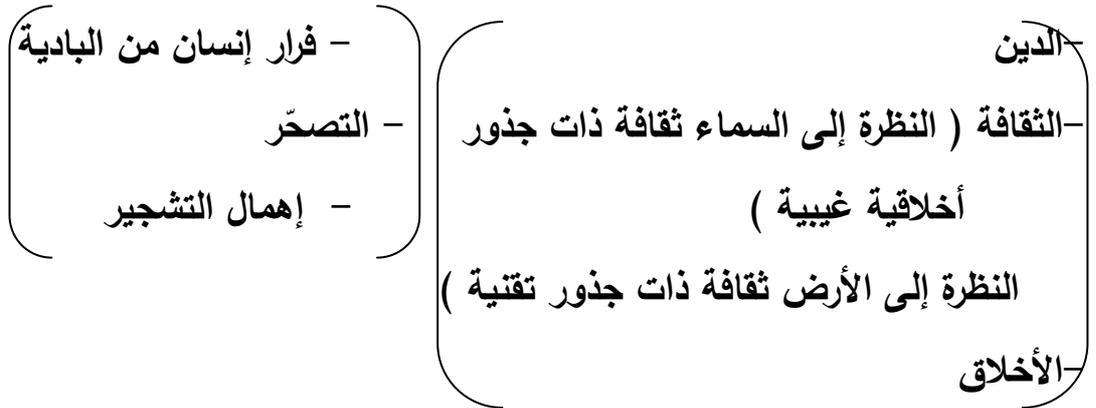
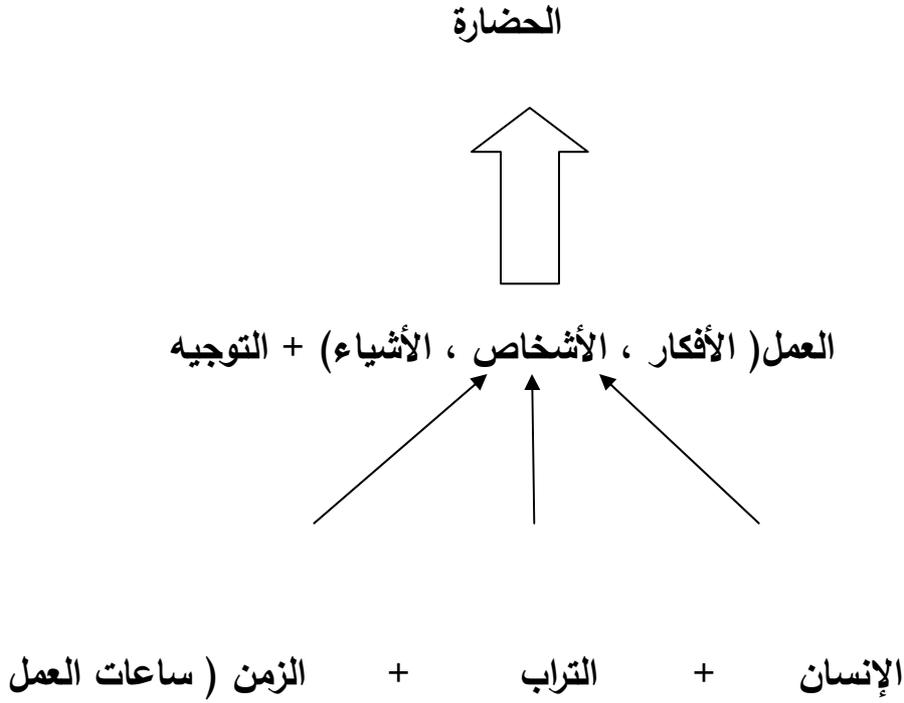
إنسان الحضارة ليس بالإنسان النمطي، المقلد، التابع، الرتيب انه إنسان لا يخضع عقله للأفكار القديمة دون نقد أو تمحيص، إنه إنسان لا يكتفي بما وجد عليه آباءه الأولون بل إنه دائم الأعمال لعقله، مجدد في فكره وفعله.. هذا الإبداع الذي يتصف به إنسان الحضارة يكون نتيجة التهيئة المناخية له، وإنما لنجد في الحضارة الإسلامية أروع النماذج الإبداعية من عقول فذة جددت الفكر وأبدعت فيه .

6- المنطق العملي

إن البناء الاجتماعي التغييري في المجتمع وفي الفرد يحتاج إلى توازن روحي-مادي، وبراغي الكيف والكم، ولا يقف عند حدود الأرقام والأعداد. وهذا ما يقود إلى ضرورة الاهتمام بالعلوم، والمعارف التي تعتمد الإنسان محوراً كالفكر والدين والفلسفة والاجتماع والتربية وسواها ، لا أن ينصب الجهد على الماديات ومتعلقاتها. فلا يمكن لإنسان الحضارة إلا أن يتصف بالمنطق العملي وحده لكي يترجم الفكر الحضاري إلى واقع حضاري . فالمنطق العملي هو من اجل تحديد أشكال النشاط العام .

7- التوجيه

وهو من اهم العناصر الواجب توافرها للانسان من اجل تسخير جميع امكاناته للوصول به الى غايته و هي بناء حضارة ، فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد و الوقت ، فالإنسان حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود ، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان ، الذي تحركه دفعة دينية (14) بتوجيه الثقافة وتوجيه العمل و توجيهه راس المال



لكن للأسف عند تطبيق هذه المراحل في بلاد العربية نجد الإنسان الأمي و التراب البائر و

الوقت الضائع (15)

- الخاتمة

إن القراءة في فكر مالك بن نبي تستلزم بالضرورة رؤية شمولية لواقع الإنسان في حركة تطوره و تناقضاته ، فأفكار مالك بن نبي بمثابة الطريق إلى بناء الإنسان الجديد و هي أفكار تحتاج إلى كثير من التأمل والتدبر و التبصر و البحث في صيغة العلاقة بين المفكر و مجتمعه و عالمه الذهني الخاص الذي يتحرك داخله و علاقاته مع الآخر و أسلوبه في التعامل مع الواقع .

المشروع النهضوي يحتاج لإنسان يؤدي واجباته في شتى الميادين قبل أن يطالب بأي حق من حقوقه. لأن التوازن في هذه المعادلة يساعد على تحقيق الاتزان في الشخصية والسلوك ، فواجب الإنسان أن ينطلق من مسلمة مفادها أنه حامل رسالة لإنقاذ نفسه وأمته ، وهذا أمر يعطي الصدارة للمبادئ والالتزام بها ، والثبات عليها ، والاستعداد للتضحية والفداء لأن الأمم لا تنتصر بغير هذا النوع من الإنسان الذي تشعب بأفكار عقيدته التي سيطرت على غرائزه وربطته بعالم القيم والأخلاق وجعلته يتشبث بالأرض ويمتلكها ليستخرج كنوزها و يستमित لأجلها متحديا الزمن الذي يسابقه

- لطالما حَلَّمَ مالك بن نبي و ناضل من أجل "تحرُّر" الإنسان و نهضته و بناء مجتمع الحرية و الديمقراطية و كذا الخروج من "التبعية..".

فهو يرى مالك بن نبي أن "الإنسان" هو الذي يصنع تاريخه بيده ، و يُبسط فكرته بأن النشاط البشري سواء كان فرديا أو جماعيا مشتركا لا يتم إنجازه فعليا، إلا ضمن شروط و هي تَوْفُر "الأداة" مقدما في ذلك أمثلة بالصانع الذي يبدع و هو منكب على عمله و بيده المقص أو الجندي المسلح ببندقيته في ميدان القتال..

من الأهداف التي توصلنا إليها:

- الاهتمام بالأشياء من اجل الأشخاص لتطوير و تفعيل الأفكار
- الاهتمام بالثقافة لأنها أحد أشكال النشاط البشري
- معرفة كيفية الاستفادة من الطاقة الحيوية للإنسان (تحرير الطاقة يدمر المجتمع - تحديد الطاقة يعيق سيرورة المجتمع - التوسط يساعد على عمارة المجتمع

الهوامش

- (1) شروط النهضة ص 194.
- (2) القضايا الكبرى ص 57
- (3) شروط النهضة ص 79
- (4) المرجع السابق ص 76
- (5) المرجع نفسه ص 86
- (6) شروط النهضة ص 23
- (7) مشكلة الأفكار انظر ص 17
- (8) المرجع السابق ص 36
- (9) مشكلة الأفكار ص 34 -
- (10) المرجع السابق ص 27 -
- (11) المرجع نفسه ص 26 -
- (12) القضايا الكبرى ص 60 -
- (13) شروط النهضة ص 101 -
- (14) انظر شروط النهضة ص 78 -
- (15) انظر المرجع السابق ص 9 0 -

المصادر المراجع

- شروط النهضة مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر
- قضايا الكبرى مالك بن نبي دار الفكر دمشق ط 1991م
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي مالك بن نبي ترجمة د بسام بركة و د احمد شعبو دار الفكر دمشق 1988م